ماهية الأيديولوجيا

What is ideology

أ . الزبير بن عون

جامعة عمار ثليجي . الأغواط

- ملخص:

يعتبر مفهوم الايديولوجيا مثل معظم مفاهيم العلوم الاجتماعية والإنسانية واسع، يحتمل الكثير من الدلالات والتفسيرات، وهو من أكثر المفاهيم في الحقول المعرفية المتنوعة تداولاً وأكثره غموضاً وتلوّناً وتشعُّباً. كما يشير إلى عدة معاني ومفاهيم، ويعود إلى عدة مجالات من التفكير الفلسفي، الثقافي والحضاري. فقد وظّف علماء الاجتماع الايديولوجيا عدة توظيفات، منهم من درس أهدافها، ومن درس أسباب وعوامل انتاجها، ومنهم من درس آثارها ...؛ هذا التعدد ترك لبساً في عقول الباحثين فيما يخص كيفية استخدام المصطلح والمفهوم وطريقة توظيفه، التفسير والتحليل به. لذلك جاءت هاته الورقة البحثية لتكشف أوجه الحقيقة والصدق عن المصطلح والمفهوم، وكيفية استخدامه من قبل المفكرين، الفلاسفة وعلماء الاجتماع وما الغاية من استخدامه ، ما هي دواعي إختلاف الفلاسفة والعلماء في تعريفهم الأيديولوجيا ؟ هل يكمن الاختلاف في التعاريف في اختلاف التوجهات الفكرية أم في الظروف الاجتماعية والسياسية التي عاصروها ؟ ما هي التعارف الأكثر دقة وواقعية أهي الفلسفية أم العلمية ؟ وما هي علاقة الأيديولوجيا بتولد النزاع والصراع في كل مجتمع ؟

الكلمات المفتاحية :

الإيديولوجيا ، نسق الأفكار ، النزاع الفكري ، الإختلاف المعرفي ، علم الاجتماع.

- Summary

considered the concept of ideology like most social and human sciences concepts, Potentially lots of semantics and interpretations, It is one of the most concepts In the fields of knowledge commonness and the most mysterious and colorful and complex, also it refers to several meanings and concepts, It is due to several areas from philosophical, cultural and civilizational thinking, He has been hired by sociologists Ideology has several functions, There are those who studied the goals of ideology, and there are those who studied the causes and factors of the production of ideologia, There are those who studied the effects of ideology, This multiplicity leave the ambiguity in the minds of researchers on how to use the term and concept, And the method of employment, Interpretation and analysis with it. So came this research paper to reveal aspects of truth about the term and concept, and how to use it by thinkers, philosophers and sociologists and what is the purpose of its use?. What is the difference between philosophers and scientists in their definition of ideology? Does the difference in definitions differ in the different intellectual orientations or in the social and political circumstances that they experienced? What is the most accurate and realistic acquaintance, philosophical or scientific? What is the relationship of ideology to the generation of conflict and conflict in every society?

- تمهيد:

يعد مصطلح" إيديولوجيا Idéologie" من أكثر المصطلحات استعمالا وتشعبا من حيث المفهوم بثرائه، وتعدد مشاربه وميادينه. لذا نراه كثير التوظيف من طرف الفلاسفة والمفكرين والأدباء والعلماء، وعلى الرغم من تعدد ميادين استعمالاته، يظل غامضا لا يستقر على حال، فنجده تارة في مدلوله الفلسفي والفكري وحتى السوسيولوجي يحمل تعقيدات في استعمالاته المفهومية، فإذا أحيل هذا المصطلح على الحقول العلمية السوسيولوجية المتفرعة صار أكثر تعقيدا، بفعل تعدد استعمالاته من قبل علماء الاجتماع، وهذا حسب التوجهات النظرية والفكرية لكل عالم، وايضاً حسب الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية التي يعيشها كل عالم وعلى هذا الأساس تكون المهمة صعبة في تتبع الأفق الدلالي والمفاهيمي لهذا المصطلح. ولكن في محاولة منا أن نبسط ونيسر كل معسر عن الباحثين في هذا المجال المعرفي الخصب.

1- مفهوم الايديولوجيا:

استخدم مصطلح " الايديولوجيا " لأول مرة من طرف المفكر " ديستوت دي تراسي" 1754 - 1836. في كتابه " مشروع عناصر الإيديولوجيا " سنة 1801 ، حيث أن أصل الكلمة لاتيني ينقسم إلى قسمين: Idéo وتعني الفكر، و Logie وتعني علم، أي " علم الأفكار "، وقد تأثر دي تراسي بنظرية الفيلسوف الإنجليزي " جون لوك " التجريبية، كما تأثر بمذهب الفيلسوف الفرنسي " كوندياك " الذي يرد كل معرفة أو إدراك إلى أصول حسية بحتة. (1)

فكما جاء في الموسوعة الفلسفية لـ "اندريه لالاند" بأن الأيديولوجيا كلمة ابتكرها "دستوت دي تراسي" يعني بها علم موضوعه دراسة الأفكار بالمعنى العام لظواهر الوعي، ومزاياها وقوانينها وعلاقاتها مع العلامات التي تمثلها وبالأخص أصلها. فقد تردد استعمال هذه الكلمة عند "ستندال" الذي استعملها خصوصاً بالمعنى المنطقي حيث قال :"إن مبحثاً فكرويا هو فضيحة مشينة فهل تعتقدون اذا انني لا احسن التفكير ...". كما استعملها "تين" الذي كان شديد الاعجاب بـ "ستندال" بنحو خاص حيث رأى بان الفكرويين هم حقاً المجموعة الفلسفية والسياسية التي كان من ابرز ممثليها "دستوت دي تراسي" ، "كاباني" ، "قولناي" ، "غارات" ، "دونو". حيث كان "دستوت دي تراسي" يقول بأن الأيديولوجيا كلمة جرى ابتكارها بروحية انكارية. (2)

وقد استخدم " دي تراسي " كلمة أيديولوجية بمفهوم أوسع وأشمل باعتبارها علم دراسة الأفكار والمعاني كما هي في الواقع المحدد تاريخياً، ليست الأفكار في ذاتها، بل لذاتها في معانيها وفي تعبيراتها وأساليبها وتظاهراتها واستخداماتها ودلالاتها في مجتمع معين، وفي مواقف اجتماعية محددة وفي سياق حضاري ثقافي محدد.(3)

وقد كان اهتمام " دي تراسي " ينصب على إيجاد مبحث يهتم بدراسة الأفكار أو الوعي الذي يحمله الإنسان دراسة علمية مقننة، بعيدة عن تلك التصورات الكاذبة التي وصفها " غورفيتش في كتابه " الإيديولوجيا والبناء الفكري الإيديولوجي " بأنها:" خيالات أو بعبارة أبسط الصورة الكاذبة التي يرسمها الناس عن أنفسهم ، بمعنى أن

النظام الفكري الذي يحمله الإنسان نابع بالدرجة الأولى عن تلك التصورات المنبثقة من الجانب النفسي له في خوالجه الذاتية، فتشخيص الأفكار في حالة تمثلها الواقعي العلمي، يختلف عمَّا تشير إليه تلك الانطباعات النفسية التي تظهر على شكل انفعالات عاطفية تمثل منظومة الأفكار المغلوطة للفرد تجاه الواقع.[4]

ان هدف الايديولوجيا من وجهة نظر دي تراسي هو تأسيس منهج سليم لا يرقى اليه الشك، يمكن بواسطته للأفكار الصحيحة أن تُحدد بشكل علمي بغية استخدام العقل في ادارة شؤون الانسان بما يخدم المجتمع ككل، بمعنى آخر ان مؤسس مفهوم الايديولوجيا يشاطر حركة التنوير هدفها الجوهري، اذ يلقي الضوء على الجوانب المظلمة للفكر والحياة خدمة لمصلحة الجميع، فقد اعتبر منهجه في علم الافكار المقياس النهائي الحقيقي الوحيد لقدرة الانسان الذهنية، وفي اعتقاد "دي تراسي" أنه ما دام اسحاق نيوتن قد اكتشف قوانين الجاذبية، فما المانع من اكتشاف القوانين التي تحكم الفكر البشري؟.[5]

إن اهتمام "دي تراسي" بهذا المبحث في التحليل العلمي للإيديولوجيا، يرمي إلى تخليص مصطلح "الإيديولوجيا" من كل أنواع الخيال والميتافيزيقا من جهة، واهتمامه بتفكيك وتبسيط الأفكار الحركية في واقعها المشخص من جهة أخرى ، ليسهل بعد ذلك تبنيها وتداولها. هذا ما جعل مصطلح الإيديولوجيا ينتشر انتشاراً واسعاً بين المفكرين والفلاسفة، خاصة في الأبحاث السوسيومعرفية، لينتقل بعد ذلك إلى رجال السياسة، ومنه إلى رجال الأدب.

وغير بعيد عن هذا التوجه المعرفي؛ نجد توجها آخر يتمثل في المفهوم الفلسفي "للإيديولوجيا" الذي لا يختلف كثيرا عن مفهوم "دي تراسي" فقد ورد في الموسوعة الفلسفية ما معناه أن الإيديولوجيا :"نسق من الآراء والأفكار السياسية والقانونية والأخلاقية والجمالية والدينية والفلسفية" [6]، هذا ما يشير إلى أن "الإيديولوجيا" منظومة أو نسق فكري عام مشكَّل من أنساق جزئية يحملها الوعي الإنساني، ويُعبر عنها في المحيط الاجتماع ، فهذا المفهوم الفلسفي يتقاطع مع النظرة الماركسية والسوسيولوجية في نقطة واحدة، وهي تحديد مفهوم الإيديولوجيا كأنساق اجتماعية واقتصادية وسياسية، فهذه كما يرى لوي التوسير:" الأنساق من التمثلات ذات المستويات المختلفة هي: الإيديولوجيا".[7]

وهناك دلالة أخرى لمفهوم الأيديولوجيا عند "ماركس" و "انجلز" هي أنها وليدة مجموعة معينة من المصالح الاقتصادية لطبقة معينة أو جماعة معينة بصرف النظر عن كونها حاكمة أولا. كما ربط لينين فكرة ارتباط الأيديولوجيا بمصالح طبقية معينة، فالأيديولوجيا تأتي نتيجة التفاعل بين العناصر الواعية في طبقة ما ومصالحها.

أما ماكس فيبر فقد كان التفسير الذي قدمه لعلاقة البروتستانتية بالرأسمالية بمثابة نقد مباشر للنظرية الماركسية وتفنيد صريح لمسلماتها حيث أوضح أن الأفكار تمارس دوراً أساسياً في دفع حركة المجتمع وتحوله نحو أشكال جديدة، ولقد أوضح فيبر أيضاً أن من الصعب فهم التطور الرأسمالي في ضوء العوامل الاقتصادية

وحدها لأن معناه التقليل من دور الأفعال في صنع المجتمع والتاريخ. ولقد قصد فيبر بذلك تأكيد قضية أساسية هي أن دراسة نشأة الرأسمالية يجب ألا يقتصر على العوامل الاقتصادية فقط بل يجب أن تأخذ في اعتبارها وبنفس الأهمية تصورات الناس عن العالم الذي يعيشون فيه وواجباتهم إزاءه. ومعنى ذلك أن الكالفينية في نظر فيبر ليست مجرد انعكاس سلبي لظروف اقتصادية بقدر ما هي توجيه أيديولوجي فعال للفعل الاجتماعي وبالتالي عامل حاسم في إحداث التغير الاجتماعي وهذه مبالغة من فيبر في نقده لمفهوم الأيديولوجية عند ماركس وانجلز أنهما لم يقصدا القول بأن الأيديولوجية هي مجرد انعكاس سلبي (مشوه) بقصد ما قصدا إبراز الدور الهام الذي تلعبه بوصفها مصدرا للشرعية السياسية والتغير الاجتماعي.[8]

وهناك عدة تعريفات للأيديولوجيا فقد عرفها "بارسونز" بأنها نسق من الأفكار الموجهة التي لها أصل إمبريقي تلك التي تمنح الإنسان تفسيراً للطبيعة الامبيريقية للجماعة والمواقف التي تقف فيها والعمليات التي نمت بها حتى حالتها الراهنة ثم الأهداف التي يتوجه إليها الأعضاء جماعيا وعلاقتهم بمسار الأحدث في المستقبل.

كما يشير "م. رودنسون" من جهته؛ الى الطابع الثنائي للإيديولوجيا، هذا الطابع الدي يصادر على التنقيص من قيمة كل الصراعات غير تلك التي يجد المرء نفسه منخرط فيها، أي اضفاء صبغة مثالية على الجماعة التي ينتمي اليها الشخص واضفاء صبغة شيطانية على الخصم.[9] وهذا ما هو ملاحظ في الأحداث السياسية التي تحدث في البلدان العربية بحيث أن كل ايديولوجية تحاول القضاء على الايديولوجية المضادة. بحيث نجد بأن هناك حكومات ذات ايديولوجية قومية وطنية أو علمانية تعادي الايديولوجية ذات التوجه الاسلامي أو الاشتراكي بكل الوسائل، بحيث نجدها تتغافلها بالمرة، وتحاول تحييدها من طريقها أو القضاء عليها وعلى المنتمين فيها. ويشير "ف. شاتليه" الى ان الايديولوجيا مشيئة، فهي تهدف الى ابقاء الوقع الحالي للأشياء، فهي في جوهرها مضادة للتاريخ.

وقد استعمل "لوكاتش" مفهوم الأيديولوجيا بالمعنى نفسه الذي كان لينين قد عرض له عندما حاول أن يناقض الصراع بين (البناء العلوي الفكري للبرجوازية والبناء العلوي للبروليتاريا) على أن الأول (بسبب سيطرته الاجتماعية) هو الذي جعل من الثاني تابعاً له وكان الغرض من نظريته هذه ليس الحط من الأيديولوجيا البروليتارية وإنما البرهنة على أن الصراع الطبقي في الميدان هو أكثر فاعلية من الصراع على الصعيد الأيديولوجي.

أما المفكر الماركسي الإيطالي "أنطونيو جرامشي" فقد ذهب في تحليله للمفهوم اللينيني للأيديولوجيا، إذ قال أن البناء العلوي الفكري لم يكن مفهوماً مجرداً يأتي من نفسه كامتداد للطبقة، وإنما يأتي من خلال جماعة من أعضاء الطبقة المرتبطة بها عضويا، وهذه الجماعة هي المثقفون فلا مثقفين في رأيه إلا إذا كانوا مثقفين طبقيين، وهؤلاء المثقفون هم بمثابة مسجلين لإرادة جماعية، ومعبرين عن اتجاه واضح في تاريخ طبقتهم.[10]

وقد تناول "هابرماس" الأيديولوجيا في علاقتها بالوعي الاجتماعي وذلك على مستويين مادي ونظري، وعلى المستويين يربط مفهوم الأيديولوجية بنقد الأيديولوجية، وبالنقد الاجتماعي ذلك أن نقد أيديولوجية ما يستلزم كشف القوة الاجتماعية صاحبة المصلحة في ترويج أفكار بعينها. ويحاول "هابرماس" أن يكشف عوامل التشويه والخداع وإخفاء بعض جوانب الحقيقة وابرز بعضها الآخر، فالأيديولوجيا قناع يخفي أكثر مما يعلن، ويزيف أكثر مما يوضح، وهو معنى سلبي طالما زعمه نقاد الأيديولوجية على مر العصور الذين يعتقدون (أن كل فكرة هي إحدى مفردات أيديولوجية معينة، وكل أيديولوجية هي قناع لمصلحة ما).

ويعرف جي روشيه الأيديولوجيا بأنها نسق من الأفكار والأحكام ظاهر ومنتظم عموماً يستخدم ليصف ويفسر ويشرح أو يبرر وضع مجموعة أو جماعة من الناس، والذي يستوحي من مفاهيم القيم بشكل عام، ويحدد اتجاه الفعل التاريخي لهذه المجموعة أو لجماعة من الناس.

ويلاحظ في هذا التعريف أنه يفرق بين الفكر في ذاته وما ينتج عنه من أفكار عامة والأيديولوجيا باعتبارها نسقاً من الأفكار يحدد ويوجه أفعال وممارسات جماعة اجتماعية معينة في لحظة تاريخية محددة، لأن ذلك هو الفيصل بين الأفكار والنظريات من جهة والأيديولوجيات من جهة أخرى، فهي وإن كانت نوعاً خاصاً من الأفكار إلا أنها تقوم بوظيفة اجتماعية محددة هي توجيه الفعل الاجتماعي، هي إذن فكر في حالة فعل، فكر يستهدف تحريك جماعة معينة نحو أهداف محددة، وهكذا تلعب الأيديولوجية دوراً هاماً في تحديد الفعل الاجتماعي، فهي تحدد اتجاه الفاعل وتفسره وتبرره وتضفي شرعية على الوسائل المتاحة للفاعل والغاية التي يستهدفها.[11]

وقد استخدم علماء الاجتماع السياسي مصطلح الأيديولوجية السياسية للإشارة إلى مجموعة مفاهيم تتصف بأنها:

- تعالج تساؤلات مثل من هم الذين سيصبحون حكاماً، وكيف يتم اختيارهم، وما هي الميادين التي سوف يستندون إليها في ممارسة الحكم.
- تمثل عموماً نوعاً من الجدل أو الحوار بين وجهات نظر متعارضة.
- تؤثر في مجموعها في قيم الحياة الرئيسية.
- تضمن برنامجاً للدفاع عن النظم الاجتماعية الأساسية أو إصلاحها أو هدمها.
- تمثل في جانب منها تبريرات لصالح الجماعة دون أن يعني ذلك كل الجماعات.
- تعبر عن الطابع المعياري، والأخلاقي على مستوى الشكل والمحتوى.
- تمثل جزءاً من سياق أشمل يتضمن نسق الاعتقاد بأكمله.

الحديث عن تعريف "كارل مانهايم" بخصوص الايديولوجيا يعكس مفهوم الايديولوجيا حسب "مانهايم" الاكتشاف الذي انبثق من الصراعات السياسية، وهي أن المجموعات القيادية يمكن أن تكون مرتبطة فكرياً بالحفاظ على وضع معين، وأنها لا تدرك بعض الوقائع التي تسيء الى رغبتها في السيطرة، ويقتضي أن اللاشعور

الجمعي لبعض المجموعات يعتم في بعض الحالات الظروف الواقعية للمجتمع، امام الآخرين ويؤدي دوراً في احداث نوع من الاستقرار.[12]

وفي التراث العربي يوضح "عبد الله العروي" أن "الأيديولوجيا" كلمة دخيلة على جميع اللغات الحية وهي تعنِي لغويًا في أصلها الفرنسي (علم الأفكار) لكنها لم تحتفظ بالمعنى اللغوي، إذ استعارها الألمان وضمنوها معنًى آخر، ثم رجعت إلى الفرنسية فأصبحت دخيلة حتى في لغتها الأصلية ولذلك فليس من الغريب في مثل هذه الحالة أن يعجز الكتاب العرب عن ترجمتها لكلمات مرضية، إن العبارات التي تقابلها (منظومة فكرية) (عقيدة) تشير فقط إلى معنى واحد من بين معانيها.

ويوضح "العروي" أننا عندما نقول إن هذا الحزب يحمل "أيديولوجية" ونعني بها مجموع القيم والأخلاق والأهداف التي ينوي تحقيقها على المدى القريب والبعيد، ويكتسب هذا الحكم في استعمالنا الحالي صيغة إيجابية لأن الحزب الذي لا يملك أيديولوجية هو في نظرنا حزب انتهازي لا يهمه سوى استغلال النفوذ والسلطة، كما أننا عندما ندرس أيديولوجية عصر النهضة نعني بها النظرة التي كان يلقيها رجل عصر النهضة إلى الكون والمجتمع والفرد والتي يندرج تحت قواعدها العامة كل حكم صدر في ذلك العصر، إننا لا نقارن نتائج علماء النهضة بالعلم المعاصر بل نربطها بفلسفة وأدب وفن وسياسة العهد المذكور، فأيديولوجية عصر من العصور هي إذن الأفق الذهني الذي كان يحدد فكر إنسان ذلك العصر، وعندما نحكم على أيديولوجية عصر النهضة فإننا نحكم عن أيديولوجيا تتصل بواقع معين، فمفهوم الإيديولوجيا إذن مرتبط بالمجتمع والتاريخ ومفهوم الإيديولوجيا إذن لا ينتعش ويتبلور إلا في إطار تاريخ اجتماعي.[13]

وفي مقام اللبس والغموض الذي يحيط بمصطلح ايديولوجيا يحلو للبعض أن يستخدمها بمعنى العقيدة أو المعتقد الديني أو السياسي، أو الاقتصادي، ورغم ما بين الايديولوجيا والعقيدة أو المعتقد من صلة، الا ان اللفظين ليسا مترادفين، والصلة بينهما صلة سببية في بعض الاحيان. وكما ان للايديولوجيا صلة بالعقيدة لها صلة كدلك بالثقافة، فهذه الاخيرة غير مرادفة للايديولوجيا غير انها يمكن ان تكون صلة سلبية كذلك في بعض الاحيان، فالثقافة قد تكون سبباً من اسباب الايديولوجيا، ومكوناً من مكوناتها حيث تشكل تصورات الأفراد لتجعل من تلك التصورات تصورات عملية ووظيفية، تحقق للانسان حاجات معينة، في بيئة معينة، سواء كانت هذه الحاجات مادية، تتعلق بأمور حياته اليومية أو النفسية، وتتعلق بتكيفه مع الآخرين.[14]

الأيديولوجيا إذن هي نسق من المعتقدات والمفاهيم (واقعية ومعيارية) يسعى إلى تفسير ظواهر اجتماعية معقدة من خلال منظور يوجه ويبسط الاختيارات السياسية الاجتماعية للأفراد والجماعات وهذا هو ما يمكن وصفه بالمعنى الحيادي للمصطلح، إذ أن مثل هذا التعريف ليست لديه القدرة على توضيح الدلالات المختلفة والمتنوعة التي اكتسبها من الأنساق الفكرية العديدة التي عملت على إظهار مدى التوازن بين الجانبين الواقعي والأخلاقي اللذين يمثلان مقومات الأيديولوجية.

أو هي نظام الأفكار المتداخلة (كالمعتقدات والتقاليد والمبادئ والأساطير) التي تؤمن بها جماعة معينة أو مجتمع ما وتعكس مصالحها واهتماماتها الاجتماعية والأخلاقية والدينية والسياسية والاقتصادية والنظامية وتبررها في نفس الوقت وتقوم الأيديولوجيات بمهمة التبريرات المنطقية والفلسفية لنماذج السلوك والاتجاهات ، والأهداف وأوضاع الحياة العامة السائدة وجدير بالذكر أن أيديولوجية أي شعب تنطوي على تفسير وإعادة صياغة أطر مرجعية أيديولوجية بديلة على أن هناك من يرى أن عناصر الأيديولوجية حقائق صادقة ومذاهب ثابتة وليست صيغا فلسفية أو نظرية يمكن أن تتوافق مع كل تغير في الظروف الاجتماعية والثقافية.

ويبدو أن الاستخدام الفني لمصطلح الأيديولوجية يميل إلى اعتبار الأيديولوجية محصلة عدة عناصر فهي لا تدل فقط على المعتقدات التي توجد لدى الناس او نسق القيم، أو محصلة الأهداف والمعايير، وإنما تتضمن كل هذه الجوانب مجتمعة، هذا بالإضافة إلى نظرة الانسان للأشياء المحيطة به، والتصور الذي يطوره عن العالم، وهى في نفس الوقت تشير إلى مجموعة الخبرات والأفكار والآراء التي يستند عليها في تقييمه للظواهر المحيطة به. (15)

وهناك تعريف آخر للأيديولوجية بأنها نسق من الآراء والأفكار والنظريات السياسية والحقوقية والدينية والأخلاقية والفلسفية. فالأيديولوجيا جزءاً من الوعي الاجتماعي تتحدد بظروف حياة المجتمع المادية وتعكس العلاقات الاجتماعية وفي المجتمع الطبقي تتسم الأيديولوجيا بطابع طبقي. ويأتي الصراع في ميدان الأيديولوجيا إنعكاساً طبيعياً لتضاد المصالح الطبقية، ويمثل شكلاً من أشكال الصراع الطبقي الأساسية. (16)

2- خصائص الايديولوجيا:

يمكن ادراك وتلخيص خصائص الايديولوجيا من العناصر الآتية الذكر: (17)

- التعبئة وتحريك الجمهور:

ما يميز الإيديولوجيا هو خطابها الذي صمم لتحفيز ولتعبئة الناس وراءها، فهي لا تنحو فقط للإعلام ولكن لتوليد الحركة بين معتنقيها. قوة الإيديولوجيا لا تكمن في البرهان التجريبي أو المنطقي، ولكن في قدرتها على تحفيز الحركة، وذلك من خلال تقديمها أفضل الوعود. إن الإيديولوجيا بطبيعتها، تمارس سلطة على الذين يقبلونها. وسلطة الإيديولوجيا مستمدة من الشعور الذي يوقظه العمل الذي تحرص عليه الإيديولوجيا. فالأحزاب السياسية بإيديولوجيتها باستطاعتها تحريك الجماهير والمعتنقين لفلسفتها وأفكارها واخراجهم الى الشوارع من أجل المطالبة بحقوق، أو في تجمعات شعبية كبيرة من أجل التأثير في الراي العام، أو علاج مشكلة اجتماعية او سياسية ما، وما الثورات التي حدثت في الدول الاوربية في القرن السابع والثامن عشر، والتي حدثت في البلدان العربية في العشرية الاولى من القرن العشرين الا خير دليل على ذلك.

- الشمولية في التفسير:

الإيديولوجيات تسعى إلى التفسير الشامل للمجتمع الإنساني، وقواه المحركة بغض النظر عن صحة أو خطأ هذا التفسير، وفي هذا الإطار تسعى الإيديولوجيا إلى اعتبار الحقائق الخاصة بالطبقة حقائق عامة مقدسة وغير قابلة للنقض، وتخفي أي تناقض يمكن أن يبرز للعيان بين المصلحة الطبقية الخاصة أو المصلحة العامة. وحتى تستطيع الإيديولوجيا صياغة هذا التفسير الشمولي، فإنها تخضع لها كل المتطلبات الكائنة والممكنة: اللغة، الأسطورة، الدين، الأخلاق، الحقوق، الفلسفة، وتعمل على إقامة نسق معقد من التعقيدات والتبريرات. وطروحات ماركس الفلسفية هي المبرر على هذا الكلام، فان لكل طبقة اجتماعية مصالحها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية، بحيث نجد المنتمين لهاته الطبقة يعتقدون بأفكارها ويحاربون من أجلها ومن اجل انتشارها وشيوعها، وهذا ما حدث من نزاعات ايديولوجية بين البروليتاريا والبورجوازيا، أو بين المعسكر الشرقي بزعامة الاتحاد السوفياتي، والمعسكر الغربي بزعامة الولايات المتحدة الامريكية في الحرب الباردة.

- التطور والتغير التدريجي:

الايديولوجيا لا تبقى على حالها، وانما تكون في حالة ديناميكية متغيرة، بتغير الاجيال وأنها تتطور، ولكنها تقاوم التغيير الجذري والأساسي، فماركس هو الذي وضع أسس الإيديولوجيا الماركسية، ولكن الآخرين مثل "لينين" و "تروتسكي "و "ستالين" هم الذين قاموا بتفسيرها وأضافوا إلى هذا التفسير، فالتغيرات في الإيديولوجيا تحصل ببطء شديد لأنها تعتمد نسبيا على هيكلها، وهذا الميل إلى الاستقرار يرجع إلى أن التصورات الإيديولوجية ترتبط بمنظومات القيم المستمدة من الدين والعادات والتقاليد والتراث. فتتجمد مختلف أدوات ووسائل التربية والتنشئة الاجتماعية والسياسية، والمقاومة الغريزية للتجديد التي تنغرس في عمق آليات الحياة، تعوق عملية التحول خلال انتقالها من جيل قديم إلى جيل جديد. ولأن الإيديولوجيات تتغير في مضامينها وتطبيقاتها، فهي غالبا ما تمر بمرحلة صراع مركزة، خاصة بين المجددين والتقليديين حول الحاجة إلى التغيير، فالصراع داخل الماركسية مثلا منذ "لينين" وحتى "جورباتشوف" ما هو إلا مظهر لهذا التغيير. وكذلك التغيير الطفيف الذي حدث في الفكر الغربي المحافظ بين الرعيل الاول من الكلاسيكيين، وبين المجددين والمحدثين، هذا الاتجاه الذي كان يرى أن النظام والبناء الاجتماعي متماسك ومنسجم، ولكن المجددين قالو بوجود خلل وظيفي يضرب عمق النظام .

- التحيز والتعصب والتعنت:

ينظر إلى المعتقدات الإيديولوجية على أنها من أكثر أنواع المعتقدات انحيازاً، لاشتمالها على الأحكام المسبقة، والتحيز إلى جانب المصالح والمواقع الاجتماعية التي تسعى إليها. وفي هذا السياق يلاحظ أن الإيديولوجيات السائدة تنزع إلى حجب الفوارق الاجتماعية، وإخفاء التناقضات، وصرف الناس عن معرفة

أوضاعهم، والعمل على إظهار المجتمع على حالة من الوحدة والتماسك والاستقرار. في حين أن الإيديولوجيات الناقدة، تظهر الاختلاف وتكشف عن الفوارق والتناقض الاجتماعي، داعية إلى تجاوزه. وفي هذا نجد ان هناك نزاعاً ايديولوجيا في مجالين، في المجال الاجتماعي وفي المجال العلمي والمعرفي والاكاديمي، فأما الاول يدعو علماءه الى الحفاظ على النظام الاجتماعي ويسعون الى ذلك بكل الطرق والوسائل، وهناك من يريد تغيير النظام بالأساس، ومن هنا نفهم النزاع المعرفي بين الاتجاه البنائي الوظيفي والاتجاه النقدي بداية من ماركس ونهاية برواد مدرسة فرانكفورت النقدية. من هنا تظهر الإيديولوجيا بوصفها فكرا غائيا، مصلحيا وانتقائيا. وبموجب أن للإيديولوجيا جانب اعتقادي يتمثل في اليقين الإيديولوجي الذي لا يقيم أحكامه على الاستدلال العقلي أو التحقق التجريبي كان التعصب إحدى مميزاتها. هذا الوثوق في المعتقد هو الذي يجعل منها فلسفة مغلقة أقرب إلى العقيدة الدينية منها إلى التفكير العلمي المتميز بالانفتاح و التجديد و النقد. [18]

وفي نفس السياق أشار "جارستن" الى بعض الملامح التي تتميز بها الايديولوجيا، فهناك التعنُّت الايديولوجي، وهو يتمثل في تطبيق النظرية التي لا تسمح بأية انحرافات عن المبادئ والمقولات الموضوعية بصورة مسبقة، وفي الايمان التعصبي بصحتها المطلقة، وينتج عن ذلك الهجوم الدائم والشديد على الايديولوجيات المضادة أي باختصار نزاع ايديولوجي.[19]

- التمييز بين الأصدقاء والأعداء :

تميز الإيديولوجيات بين أصدقائها وأعدائها، فتسعى إلى احتضان أصدقائها والكفاح ضد أعدائها وهم ممثلو الإيديولوجيات الأخرى الذين يعيقون انتشار وانتصار المبادئ التي تدعو لها. وبالتالي فلا مكان للتسوية أو المهادنة معهم حتى تنتصر الحقيقة التي تدعو لها هذه الإيديولوجيا. وهكذا تعمل الإيديولوجيا على الربط بين أعضائها ومعتنقيها الذين يعتقدون بأنهم يمتلكون المعرفة المطلقة للحاضر والمستقبل وتصف أعداءها ومن يضعها موضع التساؤل بالهرطقة والضلال والخطأ. وان ما يحدث في السنة الرابعة عشر بعد الالفين في دولة مصر خير دليل على هذا، حيث ظهرت ايديولوجية ذات توجه اسلامي، واخرى ذات توجه ديموقراطي، بحيث نجد بان كل ايديولوجية تحاول ازاحة الاخرى بشتى الطرق، من خلال تشويه سمعتها في وسائل الاعلام. في محاولة للنيل منها. فنجد الايديولوجية الاسلامية تقوم بتكفير وتضليل الايديولوجية الديموقراطية، وهذه الاخير تحاول اتهام الاخرى بالإرهاب والتقتيل والتعصب الديني وما الى ذلك. وان لكل ايديولوجية اصدقاء واعداء في الداخل والخارج.

- التركيز على مناشدة العاطفة لا العقل:

إن الإيديولوجيا لا تعرف المبادئ العلمية المتمثلة في الموضوعية وإعادة النظر والنقد والتمحيص الدائم، إنها تقدم تفسيراً شاملاً وجامعاً للعالم، بحيث يستند هذا التفسير إلى افتراضات مسبقة تطلق عليها صفة اليقين النهائي. الإيديولوجيا تسعى إلى ممارسة تأثيرها عن طريق الشعارات ومخاطبة العواطف، وليس عن طريق

الأسباب العقلانية، فالإيديولوجيا تضع نفسها فوق العلم، وتقدم حقائقها زاعمة بها أقصى درجات اليقين، ومؤكدة للناس أنها على أهمية بالغة بالنسبة لحياتهم العملية، فهي تزود معتنقيها بتوجيه إجمالي ثابت في الحياة، وتضبط سلوكهم من خلال تلك المعايير و التوجيهات. هذا لا يعني أن الإيديولوجيا المعاصرة لا تستخدم العلم في سبيل تكريس ما تراه من حقائق، حيث تعمل الإيديولوجيات على اختيار النظريات العلمية لهذا الغرض، يتم هذا الاختيار بشكل مسبق، فلا يجري اختيارها أو تسخيرها إلا بقدر ما تحقق به متطلباتها. كما أنه ليس من النادر أن يتم تفسير النظريات بحيث تأتي منسجمة مع تعاليم إيديولوجيا معينة، أو بحيث يصبح استخدامها كحجج لتأييد هذه الإيديولوجيا.

- محاولة تحقيق الاهداف والمصالح:

ان الايديولوجيا تعبر عن حاجات ومصالح طبقة أو جماعة أو فئة من الفئات الاجتماعية، وعليه تصدر الاولى تلقائياً ومعنوياً من شروط الحياة الاجتماعية، في لحظة من لحظات التطور التاريخي، بينما تنشأ الثانية والثالثة الا لتعبر ارادياً أو بصورة مقصودة عن حاجات ومصالح فئة اجتماعية في مرحلة محددة وفي زمن ومكان معينين.

3- تصنيف الايديولوجيا:

يمكننا تصنيف الايديولوجيا الى عدة تصنيفات، وهاته التصنيفات تؤخذ من مفهوم الايديولوجيا وخصائصها ووظائفها التي قال بها الفلاسفة والمفكرون وعلماء الاجتماع ومن أبرز التصنيفات التي وضعها علماء الاجتماع للإيديولوجيا نذكر:

- التصنيفات الشاملة:

المقصود بالتصنيفات الشاملة هو تلك التي تشمل أنواعا إيديولوجية مختلفة تجمعها مواصفات تصلح أن تكون فئاتا لتصنيفات خاصة وخصوصية. ويغلب على مثل هذه التصنيفات التقسيم الثنائي للفئات الإيديولوجية الذي يقوم على التمييز بين مجموعة الآراء والاتجاهات والقيم والمواقف والفلسفات المتعددة والمختلفة، أي أسلوب التفكير عند الإنسان والمجتمع ككل، وبين الإيديولوجيا الشخصية الخاصة بالأفراد .

- الايديولوجيا العامة والشخصية:

فالإيديولوجيات العامة يقصد بها تلك الإيديولوجيات التي تعود إلى نظم عقائدية عامة وعالية، وإلى قيم معينة تتصل بالمجتمع كما هو كائن وكما ينبغي أن يكون، والإيديولوجيا بهذا المعنى منفصلة عن الأفراد، ولها وجود مستقل عنهم، أيا كان قبولها من الأفراد كلا أو جزءا، وقد تكون الإيديولوجيا الشخصية غير متأثرة بأي من الإيديولوجيات العامة.[20]

الايديولوجيات العامة متعلقة بسياسية الحكومات التي تحكم الدول كأن نجد ايديولوجيا في جانبها السياسي ديموقراطية، علمانية، ليبرالية، شورية، ملكية، ثورية ... وما الى ذلك، أو في جانبها الاقتصادي ايديولوجية رأسمالية، اشتراكية، إسلاموية، أو ايديولوجية دينية كأن نجدها اسلامية، شيوعية، علمانية، يسارية، يمينية ..

أما الايديولوجيا الخاصة فنجدها عند الاشخاص وتتضح في سلوكات وأفعال الأفراد الاجتماعية، وتظهر في مواقف محددة، ويمكننا تسميتها بفلسفة الحياة، او مجموع الأفكار والتوجهات التي يحملها وينتمي اليها الفرد ويولي لها ولاءاً محدد، وقد تكون هذه الايديولوجية الخاصة منضوية تحت ايديولوجية عامة والعكس ليس صحيح.

- الايديولوجيا المفتوحة والمغلقة:

ويعتمد هذا التصنيف على التفريق بين الإيديولوجيات المتفاعلة والقابلة على التعاطي مع غيرها وتبادل التأثير معها، وبين الإيديولوجيا التي تفتقد إلى هذه الخصائص. وقد ميز "جينز برغ" بين الايديولوجيا المفتوحة والإيديولوجيا المغلقة، ويقصد بالإيديولوجيا المفتوحة تلك التي تتعلم من بعضها وتتقبل النقد الداخلي، وتعترف بنظرتها الخاصة، وتستعير الأفكار وتتبادلها، وذلك بعكس الإيديولوجيا المغلقة التي تطالب بالاعتراف الكامل، و لا تقبل لذلك بديلا. كما يعني "جينزبرج" بالإيديولوجيا المفتوحة: الليبرالية والمحافظة، والاشتراكية غير الشيوعية، بينما يقصد بالإيديولوجيات المغلقة تلك التي مثل الشيوعية البلشفية.

- الإيديولوجيا الكلية والجزئية :

يميز "كارل مانهايم" الذي اعتمد هذا التصنيف لأول مرة، بين الإيديولوجيا الجزئية التي تشير الى أننا في حالة ارتياب ازاء الأفكار والتمثلات التي يقدمها الخصم، حيث نعتبرها تزويداً تزداد درجة العلم به أو تقل للطبيعة الحقيقية لوضع لا يكون لصالح الخصم الاعتراف بحقيقته، وأن ذلك التزويد والتشويه يندرج من الكذب الواعي الى التنكر الذي يكاد يكون خافياً، ويقصد بالإيديولوجيا الجزئية ايديولوجيا عصر أو جماعة تاريخية عينية مثل الطبقة حيث تتجلى لنا مميزات البنية الكلية للفكر في ذلك العصر وعند تلك الجماعة، كما ان المفهوم الجزئي للإيديولوجيا يقيم تحليله على مستوى نفساني محض فيسلم بأن الطرفين يتقاسمان معياراً مشتركاً للصدق أو سيكولوجية المصالح. ويميز كذلك بينة هذا وبين الايديولوجيا الكلية التي تضع رؤية الخصم الكلية للعالم موضع التساؤل، بحيث يستعم هذا المفهوم الكلي تحليلاً وظائفياً أكثر صورية، دون الرجوع الى البواعث، مقتصراً على وصف موضوعي للاختلافات البنيوية بين الحقول العامة داخل اطر اجتماعية متباينة.[21]

- الإيديولوجيا الشاملة والمحدودة :

يميل هذا التصنيف إلى الاعتماد على معيار البساطة والتركيب، لتحديد مدى انضواء الأخص في الأعم. في هذا السياق يميز "ماكري" بين الإيديولوجيا الشاملة والمحدودة، فلكل مجتمع مستوياته، فالمجتمع الأكبر له إيديولوجيته الشاملة على الرغم من تكويناته الداخلية الأدنى، مثلما توجد ثقافات فرعية ضمن الثقافة العامة. فالصفة الجامعة المشتركة في التصورات والقيم الجماعية تنم عن إيديولوجيا شاملة وهكذا فإن المجتمع الذي حقق ترابطا ممتداً يظل يحافظ على وحدته بصرف النظر عن التراتبية والطبقية التي تنتظمه، والتي تطور ثقافتها الفرعية، وبالتالي وعيها الخاص ضمن الوعي العام والإيديولوجيا الشاملة. [22]

ونظر مثالاً في هذا السياق عن الايديولوجيا الشاملة والمحدودة، حيث أن الجزائر دولة عربية اسلامية، فإيديولوجيتها تنحو نحو العروبة، ومتأصلة في جذور الشريعة الاسلامية السمحة وهي ايديولوجيا دينية سامية، أي هي مجموعة المعتقدات والقيم الدينية التي تتبناها، وفي نفس المجال نجد هناك ايديولوجيات فرعية ومحدودة في اطار مكاني وزماني كأن نجد ايديولوجيات جهوية وفئوية محدودة داخل اطار الدولة الجزائرية كالطوائف الدينية الأخرى، أو القبائل والعشائر الموجودة كالأمازيغ، والطوارق، والميزاب وما الى ذلك.

- الإيديولوجيا العلمية والساذجة:

يركز هذا التصنيف على وظيفة الإيديولوجيا الذي يميز في تعزيز التضامن والهوية، ويعود هذا التصنيف إلى "دافيد آبتر" الذي ميَّز بين الإيديولوجيا الدارجة وتتمثل أهميتها في توكيد الشخصية وربط البنى الاجتماعية ببعضها، القديمة منها والجديدة، ويتوقف بقاؤها على فعاليتها وقيامها بدورها وتتميز بأنها برامجية وتفسيرية. والإيديولوجيا العلمية، وهي مهنية وأساسها التخصص، وتستمد سلطتها من التفوق المعرفي، وترتبط بمفهوم البحث الحر، ومع ذلك فهي تقوي حس الواجب، ولها أفكارها الضامة والمعبرة عن الميراث الفكري. لذا فإن هذه المهنية تقوم بدور تضامني منظم، ولكن الإيديولوجيا العلمية تقلل من دور المعتقدات والعلاقات الحميمة التي تنشدها الإيديولوجيات الدارجة. [23]

- التصنيف الطبقي للإيديولوجيا :

يرتبط هذا التصنيف بالاتجاه الذي طوره "لينين" حول الطابع الطبقي للإيديولوجيا، مؤكدا على أنه لا توجد إيديولوجيا في المجتمع الطبقي خارج الطبقات. وعنده نجد أن هناك إيديولوجيتان: إيديولوجيا برجوازية، وإيديولوجيا اشتراكية، وبخلافهما لا توجد إيديولوجيا أخرى لأن البشرية لم تصنع إيديولوجيا ثالثة.

وفي نفس السياق نجد أن كارل ماركس يرى بأن الإيديولوجيا هي تبرير للمصالح الاقتصادية والقوة السياسية للطبقة السائدة في المجتمع الا وهي طبقة البورجوازيين، و أن كل جهود الإنسان الفكرية من دين وفلسفة وأخلاق وقانون وأدب وفن... تتلاشى في أيديولوجية واحدة تخدم امتيازات الطبقة السائدة، كان "ماركس" مهتما بالدور الذي تلعبه الإيديولوجيا في تعميق وتكريس عدم المساواة الاجتماعية، فالأفكار لا تنبثق من الممارسات الاجتماعية المتناقضة فحسب، ولكنها تساعد أيضا في إعادة إنتاجها. الإيديولوجيا كانت دائما مساعدا في تحقيق مصالح الفئات الحاكمة التي توجه وتشرف على المعرفة الاجتماعية ووظيفتها كانت دائما تبريرا لنمط الإنتاج السائد، ولهذا كتب "ماركس" في الإيديولوجيا الألمانية:" إن أفكار الطبقة السائدة في المجتمع أفكار الطبقة التي تملك وسائل الإنتاج المادي والتي تكون أيضا مالكة لوسائل الإنتاج الفكري ".[24]

ويرى ماركس كذلك أن:" أن الأفكار السائدة ليست أكثر من كونها التعبير الفكري عن العلاقات المادية السائدة، أو هي العلاقات المادية السائدة مدركة على هيئة أفكار، والنتيجة فهي العلاقات التي تجعل من طبقتها

طبقة سائدة، فهي إذن أفكار سيادتها." وحسبه فان نظاماً اجتماعياً كالرأسمالية هو بصورة ما ولو سلبياً نظام يحقق لذاته مشروعية خاصة. [25]

هذا فيما سبق أما في العصر المعاصر فلازالت الطبقية ضاربة بجذورها في المجتمعات وتقوم بتحقيق مصالحها السياسية والاقتصادية والاجتماعية ولكن ليست كالحدة التي كانت عليها في الحرب الباردة بين المعسكرين، فلربما نجد نزاعاً ايديولوجياً طبقياً داخل المجتمع الواحد بين الاغنياء والفقراء، أو بين رجال الاعمال والمساكين. بحيث ان الاول يستنزف ويسيطر ويهيمن على موارد الثاني وهكذا.

- التصنيفات النوعية:

ونعني بها تلك التصنيفات التي تربط بين الإيديولوجيا وموضوعها، أي مجال كل منها الخاص، وهنا يكتسب التصنيف تقسيماً يربط كل إيديولوجيا بحقلها وخصائصها المحددة، فلا يتم إدراج الإيديولوجيات ضمن تصنيف تحليلي أوسع ومن بين هذه التصنيفات نذكر:

- تصنيف "نبيل السمالوطي:

قدم "نبيل السمالوطي" محاولة في تصنيف الايديولوجيا نوردها في العناصر الموجزة تالية الذكر: [26]

-الجماعة التي توجه إليها الإيديولوجيا: إيديولوجيا موجهة لجماعة، أو للمجتمع أو ما بعده، مثل إيديولوجيا الطبقة، القومية، أو العالمية، أو الوحدة الوطنية.

-العلاقة بين الإيديولوجيا والقوة الاجتماعية داخل المجتمع: وهي التي تعبر عن الجماعة المستحوذة على القوة، أو التي تسعى إليها، أو التي تسعى للتأثير على المسيطرين.

-أسلوب الفعل والإجراءات المراد تحقيقها: السعي إلى التغيير بالتدرج والإصلاح والطرق الفرعية (إيديولوجيا الإصلاح) أو السعي للتغيير بالعنف والأساليب غير التقليدية.

-المضمون: الإيديولوجيا الرجعية، المحافظة والتقدمية.

- تصنيف "ناصيف نصار":

أما "ناصيف" فقام ناصيف بتصنيف انواع الايديولوجيا حيث صنفها على الشكل التالي: [27]

-الجماعة التي تعبر الإيديولوجيا عن وجودها: قومية، طبقية، طائفية، إثنية، فئوية ...

-العلاقة بين الفرد والمجتمع: ليبرالية، اشتراكية، شيوعية، فوضوية ...

-اتساع النظرة ومدى إحاطتها: شاملة أو جزئية.

-الموقف والنظام القائم: محافظة، ثورية، إصلاحية.

- قيمة الزمان التاريخي: تقدمية، مستقبلية، رجعية، سلفية.

4- وظائف الايديولوجيا:

هناك العديد من الوظائف الخاصة بالإيديولوجيا، لكن يمكننا الاقتصار على همس وظائف وهي: [28]

- وظيفة التجمع:

ذلك ان السياسة بطبيعتها تهتم بحفظ الامن الخارجي وضمان التلاحم الداخلي، هذان الامران لا يمكن ضمانهما بواسطة نشاط اجتماعي متميز، اذا لم تكن الحياة الانسانية تتضمن تهديداً دائماً بالصراع أو الفوضى، فالسياسة تهتم بالاختلاف وبالصراع سواء بين اعداء أو بين خصوم.

حيث ان الصراع في السياسة لا يكون بشكل فردي، فإن الايديولوجيا تقوم بوظيفة خلق تعارف بين الاصدقاء وتعيين الاعداء، ويمكن لهذه الوظيفة أن تتخذ تعبيرات بسيطة ومحددة وظرفية سواء بقطعة قماش أو أغنية، كما تهدف الى ايقاظ مشاعر جد بدائية بحيث تدفع الفرد الى الذوبان في المجموعة الحامية وحثه على استخدام العنف ضد كل من لا ينتمي الى هذه المجموعة. ويمكن ملاحظة هذه الوظيفة في كل المجتمعات كيفما كان نوعها أو طبيعتها.

- وظيفة التبرير:

ففي العبارة " أنا اقوم بهذا العمل السياسي لأنه ... " فان كل ما يمكن أن نملأ به نقط الحذف يدخل في اطار الوظيفة التبريرية للإيديولوجية، ولكن لمن نتوجه بهذا التبرير؟. قطعاً ليس للفاعلين السياسيين الذين ينقسمون اما الى معتقدين أو تقنيين، وكلا هذين الصنفين غير محتاج للتبرير الذي يعتبر في نظرهم مضيعة للوقت وهدراً لطاقتهم بدل العمل .

اذا فالحاجة الى التبرير تنمو في اوساط المتغافلين الذين هم في حاجة الى الاقتناع بدل ما يؤمنون به وبتبطيل معتقدات الخصوم والاعداء، كما يتوجه التبرير بالأساس الى الانصار المحتملين ما دام أن كل الفاعلين السياسيين سيستقطبون الانصار داخل نفس الوسط الاجتماعي، لذلك يجب اعطاء أدلة مقنعة للأنصار تجعلهم يختارون هذا المعسكر الايديولوجي بدل الآخر، ولكن من الاستحالة بمكان تبرير ايديولوجية ما بإنتاج قاع يقيمها على العقل، لان الايديولوجية هي الاكتساح العاطفي الجامح لقيمة ما كالحرية، المساواة، الرفاهية، النظام، وارادة اقامة مجتمع ما على هذا الاساس.

وما دام ان هناك قيما عديدة لا يمكن ترتيبها الا بإدخال معلومة اضافية، تصبح بدورها من ضمن القيم مما يستتبع أن كل اختيار يبقى اعتباطياً في آخر المطاف، الشيء الذي يترتب عنه أنه لا يمكن الانتهاء أبداً من عملية تبرير ايديولوجية ما، فالتبرير يعتبر المسؤول الرئيس عن التفرُّع الايديولوجي.

- وظيفة اخفاء المصالح:

يعتبر المهمة الاساسية المعروفة للايديولوجيا، حيث تقوم بإخفاء المصالح أو العواطف اتجاه الأنا أو اتجاه الآخر. لكن اذا كان اخفاء المصالح بالنسبة لـ "الأنا" عملية غير ذات معنى، فإن اخفاء المصالح بالنسبة للغير لا يمكن أن يلقي لدى الآخر نجاحاً، اذ أن المقولة التي تؤكد بأن الدفاع عن الحرية أو الاعلاء من شأنها ليس الا

ستاراً تخفي وراءه البورجوازية استغلالها للشعب تعتبر مقولة مفرغة من كل معنى، ولكن على العكس فإن اخفاء العواطف مسألة مفيدة جداً ذلك أن اظهار العواطف العدوانية يشكل خطراً على الآخر ويعرض صاحبه لإجراءات وقائية وعقابية، مما يحتم بالضرورة اخفاؤها تحت ستار ما نسميه بـ " التأدُب ". كما أن من المفيد للفاعل السياسي أن يخفي عن نفسه عواطفه، لأن من غير اللائق الاحساس بسيطرة العواطف عليه خاصة اذا كانت تقود الى تصرفات تتناقض مع المعايير المتلقية، اذ ليس من السهل القيام بالقتل والنهب والاغتصاب، في الوقت الذي يتألم فيه الآخرون، فالقسوة صفة لا تتميز بها الا أشخاص تربوا على العنف أو اصحاب النفوس القوية.

منا هنا يحتاج المرء الى تبرير اعماله الخبيثة، فالحرب قد شكلت دائماً ذلك المُحول للقيم الذي يسمح بالقيام بعدوان ضد الاجنبي، يحرمه بين الشركاء في الداخل، لذا فإن الايديولوجية تبيح الأعمال الشريرة بين الشركاء وذلك بتعيين بعضهم كأعداء ينبغي القاء عليهم.

- وظيفة التعيين:

ذلك أن الفاعل السياسي يجد نفسه أمام عدة اختيارات، وليس هناك أي حل عقلاني يمكنه من الاختيار بشكل حاسم، لذلك يتطلب الامر معلومة اضافية غير عقلانية اذا لم يرد المرء أن يظل مكتوف اليدين، بحيث ان الفاعل السياسي لا يمكنه الا يتصرف لأنه بعدم تصرفه يكون في الواقع قد تصرف بتوجيه سلوك خصومه، ومن حيث أنه ليس هناك امكانية اقامة تفاضل بين القيم بشكل عقلاني، فالإيديولوجية تسمح بتعيين قيمة أو عدة قيم على اساسها يقوم تنظيم معين للمجتمع.

لذا فوظيفة التعيين تتوقف بعد هذا العمل التأسيسي لان كل الاعمال اللاحقة لا يمكن أن تكون الا وسائل عقلانية لخدمة غاية اعتباطية، لان الفاعل السياسي يوجد دائماً في وضعية تتسم بعدم اليقين نظراً لأن معلوماته لا تكون دائماً شاملة ونتائج اعماله تكون غير متوقعة، فالإيديولوجية تمكن من تقليص دائرة عدم اليقين بشكل اصطناعي، وذلك بإرجاع الواقع الى صياغات بسيطة، كالنظام البرلماني يحقق الحرية، التأميم يحقق الفاعلية والعدالة، التسيير الذاتي يضمن الحرية والمساواة.

وتزداد أهمية هذه الوظيفة حين تتضاعف الاختيارات وتمس قطاعات جديدة من الحياة الاجتماعية، وفي اقصى الحدود، يكون هناك طموح لإعادة تشكيل مجتمع بأكمله انطلاقاً من نفس القيمة، هذا الطموح يفترض وجود ايديولوجيا شاملة يمكن تسميتها بـ " الطوبى ".

- وظيفة تجويز الادراك:

ان هذه الوظيفة لا تعمل الا على توضيح الوظيفة السابقة، ذلك أن الفعال السياسي محاولة منه لا يجاد السبل وسط عدم اليقين حيث المعطيات اليقينية دائماً نادرة، يقوم بتبسيط اقصى للمعطيات، وهو في حاجة بالتالي الى ادراك الواقع الاجتماعي كواقع حقيقي مصفى وجامد، كما أن عليه أن يدرك ككلية شفافة، لان هذا الادراك

غير الواقعي يمكنه من تقييم آثار اعماله، كما أن عليه أخيراً أن يستشرق من خلال فكرة نتائج اعماله ومن ثمة التحكم في المستقبل وفي الطرق المؤدية اليه، اذا أن عليه أن يحافظ على وهم التحكم في التاريخ من خلال الاعمال التي يقوم بها، وبدون هذا الادراك المدعم بالإيديولوجية فأنه لن يكون الا لعبة للصدفة والقدر ولن يكون آنذاك فاعلاً سياسياً قادراً على الاختيار بين الحلول الممكنة.

من البديهي أن هذه الوظيفة تكتسي أهمية مضاعفة كلما تزايدت طموحات الفاعل وزعمه بالتصرف في قطاعات أكثر شمولية داخل الواقع الاجتماعي، وتجسيد " الطوبى " هذا المال تجسيداً جيداً، حيث الواقع مكشوف بأكمله ومدرك ككلة بلا اسرار، وحيث المستقبل معروف بشكل كامل، بحيث لا يمكن أن نفعل ذلك الا بإدخال نسب متغيرة من اللاعقلانية أو بإعطائها مسبقاً واقعاً شاملا ومتحققاً.

ومن هنا يتبين أن الايديولوجيا لصيقة بالسياسة، وما دام أن الحكم بطبيعته قابل أن يتجسد من خلال ثلاث انماط، فمن المهم رصد روابط كل نمط مع مختلف وظائف الايديولوجيا بشكل يجعلنا نحدد ما هي أنماط الحكم التي تستهلك الايديولوجيا بنسب ثابتة أو العكس.

ويؤكد "ريكور" كذلك على تعدد وظائف الايديولوجيا حيث اقترح تقسيما ثلاثيا لمعنى الإيديولوجيا:

- الإيديولوجيا كتشويه وكقلب للو اقع:

وقد استعار ذلك المفهوم من حقل التصوير الفوتوغرافي في العلبة السوداء، وعليه فنحن ننتج صورة مقلوبة أو معكوسة عن الواقع، وعليه تصبح الإيديولوجيا هي تلك العملية الفكرية التي تعمل التمثلات الخيالية على تشويه الواقع.

- الإيديولوجيا كتبرير:

الإيديولوجيا باعتبارها تبريرا حيث تتحول أفكار الطبقة المسيطرة إلى أفكار مهيمنة تدعي الكونية والشمولية أو بتعبير أصح تصبح الإيديولوجيا بمثابة تبرير للوضع القائم.

- الإيديولوجيا كإدماج:

الإيديولوجيا باعتبارها إدماجا حيث نعيد الأمجاد في المناسبات كأحداث مؤسِّسة للهوية الجماعية، أو تكوين بنية رمزية للذاكرة الجماعية، وتعتبر هذه أهم الوظائف على الإطلاق.

وانتهى "ريكور" في الأخير إلى أن الوهم مجرد تشويه وفساد يصيب التبرير وليس أكثر الظواهر أهمية .فكيف يتصور فرنسيس بيكون دلالات الوهم؟. إن الأيديولوجيا تقوم بدور الوسيط لأنها نسق رمزي يستخدم كنموذج لأصناف أخرى: اجتماعية ونفسية ورمزية وهي قد تشوّه الواقع أو تخطئه لكنه تشويه يعكس حقائق معينة ويطمس أخرى لتوصيل رسالة معينة للمؤمنين بها. فقدرة الأيديولوجيا تكمن في قدرتها على الإحاطة بالحقائق الاجتماعية وصياغتها صياغة جديدة؛ فهي لا تستبعد عناصر معينة من الواقع بقدر ما تسعى لتقييم نسق يضم عناصر نفسية واجتماعية ودينية...الخ، مماثل للواقع الذي تدعو إليه الأيديولوجية.

إن السؤال الذي تثيره الأيديولوجيا هو مدى فعاليتها في رسم صورة للواقع الاجتماعي وتقديم خريطة له وأن تكون محوراً لخلق الوعي الجمعي.

ويحدد "هابرماس" وظائف الأيديولوجية فيميز بين وظيفتين مختلفتين الأول: هدم وإزاحة والثاني: دعم وإحلال وتجديد. وإذا أخذنا مرحلة التحول التاريخي من النظام الإقطاعي إلى النظام الرأسمالي نجد أن الأيديولوجيا الرأسمالية قد قامت بالدورين معاً: هدم أيديولوجيا النظام الإقطاعي وبلورة نسق أيديولوجي جديد من الحرية والمساواة ويعلق "هابرماس" أهمية خاصة على نقد الأيديولوجيا، ذلك أن التحليل الناقد الذي يقوم على مستوى المجتمع، ويقوم النقد الأيديولوجي بكشف ما يخبئه النظام السائد من خلال الهيمنة الأيديولوجية مما ينطوي عليه النظام من استغلال وقهر، ويقوم النقد الأيديولوجي بتبديد الأوهام والدعاوى الأيديولوجية الزائفة.[29]

- خلاصة :

عرفنا من خلال ما تقدم بأن مصطلح ومفهوم الايديولوجيا هلامي وواسع وذلك بفعل تعدد معانيه ودلالاته وذلك حسب تعدد وتنوع المجالات المعرفية الفكرية، الفلسفية والعلمية، كما أن الايديولوجيا كممارسة مجتمعية كانت ولا زالت حاضرة في المجتمعات المعاصرة حيث أن لكل جماعة، طائفة، عرق، حكومة، بلد ايديولوجية سواء ان كانت اجتماعية أو ثقافية أو دينية او اقتصادية تسير وفقها وهي التي توجه سلوكات افرادها وتحدد افعالهم الاجتماعية. كما نجد الايديولوجيا حاضرة بشدة في المجال السياسي، حيث تستخدم من قبل الحكومات والشعوب بداعي تحقيق اهداف ومرامي منها ما هي ذات فائدة ونفع ومنها ما هي ذات خسارة ومضرة، حيث أن الجماعات السياسية المؤلدجة تتنازع وتتصارع فيما بينها بهدف قضاء طرف على طرف آخر وازاحته من طريقه وذلك بتوجيه من الايديولوجيا وهو ما نلاحظه في المؤسسات ذات النشأة السياسية مثل الأحزاب السياسية والمجالس الشعبية المحلية البلدية والولائية والوطنية، وفي البرلمانيات ومجالس الشعب والأمة.

– الهوامش :

1- أحمد أنور، النظرية والمنهج في علم الاجتماع (كتاب الكتروني) ، منشورات جامعة عين شمس، القاهرة، 2002، ص 03.

2- اندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، المجلد الأول، ط 02، ترجمه، خليل احمد خليل، منشورات عويدات ، بيروت، ص 611.

3- نبيل رمزي ، سوسيولوجيا المعرفة ، جدل الوعي والوجود الاجتماعي ، دار الفكر الجامعي، الإسكندرية ، 2001 ، ص .18

4-جورج غورفيتش وآخرون، الإيديولوجيا ، دفاتر فسلفية، ترجمه محمد سبيلا وعبد السلام بن عبد العالي، دار توبقا، المغرب ، ط1 1999، ص .40

5- مجموعة من المؤلفين، ايديولوجيا السياسة، ترجمه عباس عباس، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، 2009، ص06.

6- روزنتال و م يودين، الموسوعة الفلسفية، ترجمه سمير كرم، دار الطليعة ،بيروت ، 1974، ص .52

7- جورج غورفيتش وآخرون، نفس المرجع السابق، ص 08.

8- على ليلة ، البنائية الوظيفية في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا، دار المعارف، القاهرة،1982، ص .7

9- محمد سبيلا وعبد السلام بن عبد العالي، الايديولوجيا (نصوص مختارة)، دار توبقال للنشر، المغرب، 1999، ص18.

10- أحمد أنور ، نفس المرجع السابق، ص 05.

11- نبيل رمزي، مرجع سابق ، ص .72

12- محمد سبيلا وعبد السلام بن عبد العالي، الايديولوجيا (نصوص مختارة)، دار توبقال للنشر، المغرب، 1999،ص.14

13- عبد الله العروي، مفهوم الأيديولوجيا، دار التنوير، بيروت، 1983، ص 24

14- عبد الغني عبود، الايديولوجيا والتربية (مدخل لدراسة التربية المقارنة)، دار الفكر الغربي، القاهرة، 1990، ص.29

15- محمد عاطف غيث ، قاموس علم الاجتماع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1979، ص 234 ، .235

16- مجموعة من المؤلفين، المعجم الفلسفي المختصر، ترجمة توفيق سلوم، دار التقدم، الاردن، 1986، ص.245

17- بتصرف؛ وللمزيد من المعلومات حول خصائص الايديولوجيا ننصح بتصفح كل من مؤلف:

- François Bourricaud , Le Bricolage idéologique (Essai Sur Les Intellectuels Et les Passions Démocratiques), Presses Universitaires De France, 1980, P.P..09.11

18- حسين عبد الحميد أحمد رشوان، الايديولوجيا والمجتمع، المكتب الجامعي الحديث، مصر ، ب ت، ص 86.

19 – حسين عبد الحميد أحمد رشوان، نفس المرجع، ص 86.

20–James c. Scott. Political Ideology In Malysia, Reality And The Belief of An Elite, University of Malaya press, Kuala Lampur, 1968, p.p 29.32.

21– محمد سبيلاً وعبد السلام بن عبد العالي، مرجع سبق ذكره، ص 11.

22- Macrea Donald. Ideology And Society, London, Heniman, 1961, p.p72,.76

-23- Apter David. Ideology And Discontent, The Free Press, 1967, p 12.

24- مالك عبيد أبو شهيوة وآخرون، الإيديولوجية والسياسة، الدار الجماهيرية للنشر، ليبيا ، 1993 ، ص 33.

25- محمد سبيلا وعبد السلام بن عبد العالي، مرجع سبق ذكره، ص 39.

26- نبيل السمالوطي، الإيديولوجيا وأزمة علم الاجتماع المعاصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، 1975 ، ص.218.

27- ناصيف نصار: مطارحات العقل الملتزم، بيروت، دار الطليعة للنشر والتوزيع،1986، ص.ص 95.93.

28- محمد بنعوفير، دروس في مجزوءة الانسان (مفهوم الوعي واللاوعي)، منشورات ثانوية الحسن الثاني التأهيلية، المغرب، 2013، ص 09.

29- إيان كريب، النظرية الاجتماعية من بارسونز إلى هابيرماس، ترجمة محمد حسين غلوم، عالم المعرفة ، العدد 244 ، أبريل 1999، الكويت، ص 215.